هي العليا ولا يكون ذلك إلا عندما يتخلص القلب من شوائب الشرك والشك والارتياب ولذلك لم يذكر مفعولاً لفعل الجهاد ؛ ليعم جهاد النفس مع جهاد الأعداء .

وهكذا يبين الله لنا أن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال باللسان كما فعل هؤلاء الأعراب الذين أرادوا أن يُنزلوا أنفسهم منزلة المهاجرين والمجاهدين دون أن يهاجروا أو يجاهدوا أو يبذلوا شيئًا في سبيل هذا الدين فلما طلب منهم الجهاد تخلفوا واعتذروا ولما ظهر أمر الإسلام جاءوا مذعنين فالإيمان له شرائط ومقتضيات فمن أداها كلها كان في زمرة الصادقين الذين قال الله في شأنهم في ختام الآية بعد أن عدد صفاتهم : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

وفيه تعريض بأنه من لم يستوفِ هذه الشرائط فهو ليس من الصادقين وأن دعواه للإيمان إنما هي مجرد ادعاء كاذب يحتاج إلى دليل وإلا فليس له حظ من الصدق أو نصيب .

❊ ❊ ❊

بين الرشد والصدق

قد مرَّ بنا الكلام عن الأعراب الذين ادعوا الإيمان ولم تكن هناك أمارة تدل على صدقهم فكذبَّهم الله في دعواهم وذلك في قوله عز وجل : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] . وفي مقابل هؤلاء ذكر الله صفات المؤمنين الصادقين فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥] ثم ختم الآية بقوله : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ . وتلك الخاتمة التي ختمت بها آية الصدق هذه تذكرنا بالخاتمة التي ختمت بها آية الرشد وهي الآية السابعة من سورة

الحجرات وهي قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] فقد تكلم الله فيها أيضًا عن الإيمان وتحبيبه إلى المؤمنين وتزيينه في قلوبهم وتكريه ما يناقض ذلك إليهم وهو الكفر والفسوق والعصيان ولذلك ختمها بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ وهنا في هذه الآية قال: ﴿وأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ وكما تكلمنا عن خُلُق الرشد بشيء من التفصيل نتكلم عن شبيهه وهو خلق الصدق ولكن بشيء من الإيجاز.

ومعنى الصدق: الشدة والشجاعة والثبات والصلابة من قولهم (رمحٌ صَدْق) أي: صلب ونقول أيضًا: هم قوم صُدق في القتال أي: ترى منهم الشجاعة والشدة عند لقاء العدو. وهذا المعنى لكلمة الصدق يلتقي كما ذكرنا من قبل مع معنى كلمة «الحجرات» فالحجرة بنيان مشيد من الحجارة يقوم بحجب ووقاية من بداخله والحجز بين الأشياء لما في الحجارة من شدة وصلابة وهو يلتقي أيضًا مع معنى كلمة «الرشد» وهي من الرشادة وهي الحجر ملء الكف وهذا كله يلتقي مع كلمات العقل والصبر والتقوى والتي يجمعها كلها معنى الكف والمنع والحفظ والوقاية ويلتقي هذا كله مع كلمة (حكيم) التي وصف الله بها نفسه في هذه السورة في الآية الثامنة منها وأصلها من الحَكَمة وهي الحديدة التي توضع في لجام الدابة لمنعها من تجاوز السرعة أثناء الجري، فاستعمال هذه الكلمات لم يكن عبثًا بل لغاية مقصودة وهي تأكيد معاني الحفظ والوقاية والتركيز على جوانب النهي والترك والاجتناب والبعد عن كل ما حرم الله من المحظورات التي ورد ذكرها في هذه السورة وهذا هو الموضوع الرئيسي لسورة الحجرات كما يبدو من اسمها الذي اختاره الله لها.

❊ ❊ ❊

مشتقات الصدق وأنواعه

ومن الصدق اشتقت كلمة «الصدقة» وهي ما يخرج من المال للمساكين والفقراء على وجه القربة، وسميت صدقة؛ لأنها تظهر صدق الإيمان فهي دليل صدقه وفي حديث مسلم «**والصدقة برهان**» فالمؤمن يتصدق وقد يكون محتاجًا إلى هذا المال الذي كسبه بكد اليمين وعرق الجبين ثم أعطاه لهذا الفقير دون أن ينتظر منه جزاءً أو شكورًا، ولكنه على ثقة أن الله سيعوضه عنه خير العوض: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ [سبأ: ٣٩]. ومن الصدق اشتقت أيضًا «الصدقة» بضم الدال وهو المهر الذي يعطى للمرأة دليلاً على صدق الرغبة في زواجها: ﴿**وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً**﴾ [النساء: ٤] وسمي ذلك أيضًا للدلالة على قوة الرابطة بين الزوجين فقد وصف الله تلك العلاقة بين الزوجين في القرآن بأنها ميثاق غليظ وتلك الغلظة تتماشى مع تعريف الصدق فمن معانيه الشدة والصلابة.

ومنه «الصديق» وهو الصاحب الذي يخلص لك النصح والمودة ويشد من أزرك وقت الشدة ولذا يقال الصديق وقت الضيق ومنه أيضًا «الصدِّيق» بالتشديد وهو المبالغ في الصدق ومن صار الصدق خلقًا ثابتًا له لا يفارقه ولا ينفك عنه بحال، والتصديق هو الاعتقاد القلبي بصدق القائل وقبول قوله ولذلك قال القشيري: الصدق ألا يكون في اعتقادك ريب أو في أعمالك عيب أو في أحوالك شوب والصدق مطابقة القول لما في الضمير وأيضًا لما في الواقع كما في «مفردات الراغب».

والصدق أنواع: منه صدق النية وصدق اللسان وصدق العمل، فصدق النية: كما في الحديث المتفق عليه أن الرسول ﷺ كان في غزوة فقال لأصحابه: «**إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيرًا أو قطعتم واديًا إلا شركوكم في الأجر، حبسهم العذر**» أي المرض ففي حديث الصحيحين: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»

فصدق النية أو الإرادة والعزم كأن يقول المرء في نفسه لئن رزقني الله مالاً لأصدقن على الفقراء فهو مأجور على نيته هذه بشرط أن تكون نية صادقة، فالنفس قد تسخو بالعزم في التو والحال ولكن عند الوفاء ربما تتردد في الفعل والإنجاز، إذ لا مشقة في العزم إنما الصعوبة في الفعل، فعند التنفيذ تهيج الشهوات وتنحل العزائم كقوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦]. وكان ينبغي عليه بعد ما آتاه الله من فضله أن يؤدي ما عزم عليه كما قال عز وجل: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

أما صدق اللسان: فكما في قوله عز وجل: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وهو أن يصدق بلسانه فيقول ما يعتقد أنه حق وذلك بخلاف المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ومعنى دعاء إبراهيم عليه السلام بأن يجعل الله له لسان صدق في الآخرين وهو الثناء الحسن الجميل من الناس بحيث إذا أثنى عليه من جاء بعده منهم لم يكن ذلك الثناء كذبًا وها نحن نصلي ونسلم ونبارك على سيدنا إبراهيم عليه السلام كما نصلي ونسلم ونبارك على سيدنا محمد ﷺ.

وأما صدق العمل: فإنما يكون بالأعمال الصالحة كأن يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه فهذا دليل صدق إيمانه كما في قوله عز وجل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * *

فضل الصدق وثمراته

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الصدق والصادقين ففي الحديث المتفق عليه: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا**» وقوله ﷺ: «**يتحرى الصدق**» يدل على أن الصدق يمكن اكتسابه بالتعود والحرص على التزامه وتحري العمل به حتى يصل صاحبه إلى أعلى الدرجات وذلك بأن يكتب عند الله صديقًا وكذلك الأمر بالنسبة للكذب غير أنه يفضي بصاحبه إلى النار.

فالصدق يُنَال بالمجاهدة والتربية فيجب أن يُعَوِّد الإنسان نفسه على الصدق ويتمرن عليه صغيراً وأن يحافظ عليه كبيراً ومن هنا تأتي مسئولية الوالدين عن تربية أولادهما على خلق الصدق ففي حديث أحمد وأبي داود أن عبد الله بن عامر قال: دعتني أمي يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: تعالَ أعطك شيئًا فقال لها: «**ماذا أردت أن تعطيه؟**» قالت: تمرًا. فقال: «**أما إنك لو لم تعطه شيئًا كتبت عليك كذبة**».

وفي حديث مسلم عن أسماء بنت يزيد قالت: إذا قالت إحدانا لشيء تشتهيه: **لا أشتهيه** أيعد ذلك كذبًا؟ قال ﷺ: «**إن الكذب يكتب كذبًا حتى الكذيبة تكتب كذيبة**». فما بالك بمن يكذب ويقول: إنها كذبة إبريل أو إنها كذبة صغيرة أو كذبة بيضاء وأمثال هؤلاء نسوق لهم الحديث السابق الذي رواه مسلم وأيضًا حديث أحمد وابن حبان والبيهقي: «**اصدقوا إذا حدثتم وأوفوا إذا عاهدتم وأدوا إذا ائتمنتم**».

ومن آثار الصدق وثمراته أنه سبيل إلى سعة الرزق ففي الحديث المتفق عليه: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت**

بركة بيعهما». وفي حديث الترمذي: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء**»، وأيضًا من آثار الصدق وثماره طمأنينة القلب فالصدق يزرع في النفس الطمأنينة والهدوء والسكينة بينما الكذب يزرع فيها القلق والاضطراب والحيرة ولذا ورد في حديث الترمذي: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**».

ومن آثار الصدق أيضًا قوة القلب وثبوت القدم ووضوح البيان مما يوحي إلى السامع بالثقة والاطمئنان فمن صدقت لهجته قويت حجته بينما من علامات الكذب الذبذبة واللجلجة والارتباك والتناقض في الكلام مما يجعل السامع يشك فيما قال ولا يشعر معه بالارتياح فالصدق سمي كذلك لقوته في نفسه؛ لأن الكذب لا قوة له فهو باطل وقيل في الأمثال: «الحق أبلج والباطل لجلج».

❊ ❊ ❊

المؤمن لا يكون كاذبًا

ومن هنا كان سلفنا الصالح يتمسكون بأهداب الصدق ويترفعون عن الكذب وقد يعتري المؤمن بعض الصفات المذمومة لكنه لا يكون أبدًا كاذبًا وفي حديث مالك في «الموطأ» أن الرسول ﷺ سئل أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: «**نعم**» قالوا: أيكون بخيلاً؟ قال: **نعم** قالوا: أيكون كذابًا؟ قال: «**لا**».

وفي حديث البزار: «**يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب**». وقد قسم الله الناس في سورة الأحزاب إلى صادق ومنافق فالإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب فلا يجتمع إيمان وكذب في قلب العبد.

وأهل الفضل يتركون الكذب لأنه منقصة تخدش مروءة صاحبها ولذلك قيل في «مناقب الشافعي» رحمه الله: (لو كان الكذب مباحًا لكانت مروءة الشافعي تمنعه

من الكذب) فحسب العاقل أن يترك الكذب من باب المروءة فكيف وفيه المأثم والفضيحة؟ وقد روي عن أحد الصالحين أنه قال: (ما أحسبني أثاب على ترك الكذب فإني أتركه أنفه) فالمؤمن يأنف بطبعه أن يكون كاذبًا، فإنه لا يكذب أحد إلا لصغر قدر نفسه عنده.

قال الشاعر:

لا يكذب المرء إلا من مهانته ... أو عادة السوء أو من قلة الأدب

وكل ذنب يُرجى تركه إما بتوبة أو إنابة إلا الكذب فإن صاحبه يزداد به ولعًا وتعلقًا كلما تقدمت به السن فكم من شارب خمر أقلع عنها وتركها!

وكم من زانٍ تاب عن زناه وندم؟ ولكن الكذاب نادرًا ما يرجع عن كذبه فعلاج الكذب مستعصٍ إلا من رحم ربي. ويكفي الإنسان أنه إذا ما اتصف بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت إلى أكاذيبه زيادات موضوعة حتى يصبح الكذاب مكذوبًا عليه ولذلك من طريف القول ما صوره الشاعر في هذين البيتين:

حسب الكذوب من البلية ... بعض ما يحكى عليه

فإذا سمعت بكذبة ... من غيره نُسِبت إليه

فالذي يكذب يفقد احترام الناس وحتى لو صدق بعد ذلك فإنه لا يصدقه أحد، وروي في ذلك قصة الغلام الذي كان يرعى الغنم ويشعر بالوحدة والملل فأراد أن يستأنس بوجود الناس معه فاحتال لذلك فصرخ ذات يوم بأعلى صوته أن الذئب قد هجم على غنمه فأسرع إليه الناس فلما أقبلوا عليه لم يروا عنده ذئبًا ورأوه لا تبدو عليه أمارات الخوف أو الفزع، فجلسوا عنده قليلاً ثم انصرفوا إلى أعمالهم. وفي اليوم التالي عاود الغلام الكرة مرة أخرى ونادى على الناس فجاءوه فلم يجدوا شيئًا بل ووجدوه يضحك فشكُّوا في أمره وعرفوا أنه كاذب، وفي المرة الثالثة جاءه الذئب فعلاً فلما استغاث بالناس لم يهبّ منهم أحدٌ لنجدته فخطف الذئب شاة من غنمه، ولما رجع في المساء وحكى لهم ما حدث له قالوا له: إن الكذّاب وإن صدق في قوله فإنه لا يُصدِّقه أحد فقد عُرِف عنه الكذب واشتهر به بين الناس وهذا جزاء الكذاب.

الصادق الأمين

والصدق من صفات الرسل الكرام، فالرسل كلهم صادقون، اصطفاهم الله ليبلغوا رسالاته إلى الناس، وهم يتصفون بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة. فالصدق صفة ملازمة للنبوة وخلق طبع عليه الأنبياء فلا يمكن أن يصدر من أحدهم ما يخل بالصدق والأخلاق الحميدة، كالكذب والخيانة أو غيرها من الصفات القبيحة التي لا تليق بمقام المرسلين والأنبياء لأنه إذا جاز الكذب من الأنبياء لما أصبح هناك ثقة فيما يبلغونه من أخبار الوحي ولو أنه أُثر على نبي كذبة واحدة ولو قبل أن يوحى إليه فإنه لا يصدقه أحد بعد ذلك.

وقد اشتهر الرسول ﷺ منذ نشأته بالصدق والأمانة حتى كان أهل مكة يلقبونه قبل بعثته «بالصادق الأمين» فكان منذ طفولته عَلَمًا بين الناس في صدقه وأمانته وسمو أخلاقه، ولذلك لما نزل قوله عز وجل: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الحجر: ٩٤] صعد جبل الصفا ثم أخذ ينادي على بطون قريش حتى إذا اجتمع الناس عنده قال لهم: «**لو أني أخبرتكم أن خيلاً تريد غزوكم أكنتم مصدقيَّ؟**» قالوا: لم نجرب عليك كذبًا قط فأنت عندنا الصادق الأمين. فلما شهدوا له بالصدق والأمانة وأقروا بذلك قال لهم: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**».

ولقد شهد له بالصدق كل أهل مكة حتى أكابر المشركين الذين كانوا يحاربون دعوته لم يكونوا يشكون في صدقه فقد عرفوه صادقًا أمينًا ولم يعلموا عنه ولو كذبة واحدة في حياته بينهم قبل الرسالة ولكنهم كانوا يرفضون إظهار التصديق ويأبون الدخول في الدين الجديد خوفًا على زعامتهم وحبًّا للرياسة والوجاهة في الدنيا.

فقد التقى الأخنس بن شريق ذات يوم بأبي جهل وقال له: يا أبا الحكم، ليس ههنا

غيري وغيرك، أنشدك الله هل محمد صادق أم كاذب؟

فقال له: هو والله صادق ما كذب قط.

قال الأخنس: فما الذي يمنعك من اتباعه؟

فقال: تنافسنا نحن وبنو هاشم السيادة في قريش، أطعموا فأطعمنا وسقوا فسقينا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تساوينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: من نبي يأتيه الوحي من السماء فأنى لنا هذه ومن أين نأتيهم بنبي؟فوالله لا نؤمن به ولا نتبعه.

وفي هذا نزل قوله عز وجل مسلّيًا عن نبيه ﷺ: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣٣] فقد كذبوه حسداً وبغيًا وإلا فهم أدرى الناس بصدقه وأمانته.

ففي الحديث الذي دار بين هرقل ملك الروم وبين أبي سفيان قبل إسلامه دليل قاطع على صدق رسول الله ﷺ فالفضل ما شهدت به الأعداء ففي «صحيح البخاري» أن هرقل أرسل إلى أبي سفيان في ركب من قريش وكانوا تجارًا في الشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ في عهد فيها مع قريش (أي: أثناء صلح الحديبية) ودعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم. ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ؟

فقلت: أنا أقربهم إليه نسبًا.

فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عليه ثم سأله تسعة أسئلة منها وهو الشاهد الذي من أجله أوردنا هذا الحديث: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

فقال له هرقل: لم يكن ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله، ثم قال

هرقل: لأبي سفيان ومن معه من كفار قريش فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم (أي: من العرب) فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت قدميه). ومع ذلك ركبوا رءوسهم واستمروا في غيهم يعمهون.

* * *

الصدق منجاة

والإنسان الصادق تستوي سريرته وعلانيته ويكون باطنه مثل ظاهره بل خيراً منه، ولذلك قيل الصدق: هو قول الحق في مواطن الهلكة بحيث يوافق السر العلن ويجهر المرء بما يعتقد أنه حق. فالصادق يقول الصدق ولو تعرض إلى الموت أو القتل فحقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب فقد كان الحجاج بن يوسف الثقفي يخطب ذات مرة فأطال الخطبة فقال رجل من المصلين: الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك. فغضب الحجاج وأمر بحبسه، فأتاه نفر من قومه وزعموا أنه مجنون. فقال الحجاج: إن أقر صاحبكم على نفسه بالجنون خليت سبيله فقيل للرجل ذلك فأبى أشد الإباء وقال: معاذ الله أن أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني ورفض أن يكذب لإطلاق سراحه. وبلغ ذلك الحجاج فقال والله ما ضره الصدق عندي وعفا عنه لصدقه ولذلك ورد في الأثر: (عليك بالصدق وإن رأيت فيه الهلكة فإن فيه النجاة وإياك والكذب وإن ظننت أن فيه النجاة فإن فيه الهلاك) أو بعبارة أخرى: (عليك بالصدق وإن كنت ترى أنه يضرك فإنه ينفعك وإياك والكذب وإن كنت ترى أنه ينفعك فإنه يضرك) فما عز كاذب ولو نال النجوم بيديه ولا ذل صادق ولو اجتمعت الدنيا عليه.

وقيل للحارث المحاسبي ما علامة الصدق؟ فقال: الصادق هو الذي لا يبالي ولو خرج كل قدر له في قلوب الخلق ولو جفاه كل من في الأرض ولذلك قال الله عز